

جامعة الموصل

كلية الآداب

القسم: الفلسفة



عنوان المحاضرة: طبيعيات الرواقين

المادة الدراسية: فلسفة يونانية

المرحلة الدراسية: المرحلة الثانية

مدرس المادة: م. رؤى زبير عبد الجبار

العام الدراسي: ٢٠٢٥-٢٠٢٦

- الطبيعة الجسمية في المدرسة الرواقية -

أولا / أسس المادية الرواقية :

كان الرواقيون - على عكس أفلاطون وأرسطو - صريحين جدا ، في الإعراف بالوجود الحقيقي للمادة ، بل زادوا على ذلك بتأكيدهم ((أن كل ما يوجد إنما هو مادة من نوع مادي فالكون كله ملاء وبدون أن يكون فيه خلاء))^(١) ، إلا أنهم قالوا بأن المادة جسم ، وأن الشيء لا يكون حقيقيا ما لم يكن جسمانيا ، فكل علة هي عندهم جسم من الأجسام ، وكل حقيقة هي حقيقة جسمانية ، ولا وجود إلا للجسم ، وما لا جسم له فلا وجود له.

ويتفق الرواقيون مع أفلاطون في التأكيد على أن الموجود الحقيقي هو الذي يؤثر ويتأثر ، ورأوا أن الشيء الذي يقبل التأثير والتأثر هو وحده الجسماني ، فقالوا ، إن الوجود الحقيقي هو الوجود الجسماني فحسب. فابتداء من الإله حتى الصفات الموعلة في التجريد ، كل هذه الأشياء هي الأخرى مادية ، وتفسر على نحو مادي خالص.

وأساس هذه المادية الرواقية (المتطرفة) ، ليس بالأمر الذي يمكننا ببساطة إرجاعه الى جهة تأثير واحدة بعينها ، فقد اختلفت الآراء في تحديد الأساس الذي تأثرت به وبنت عليه المدرسة الرواقية (نزعتها المادية) ، وسنعمل - بطريقة مختصرة - على عرض تلك الآراء ، لأنها ستسهم بشكل و بآخر في تحديد (المادة) الرواقية ، والتي لا يمكن عد الحقيقة الأولى و (الكلية) للوجود شيئا سواها.

يرجع البعض أساس المادية الرواقية الى مبدأ أفلاطوني صرف ، فأفلاطون يذكر في محاوره (السفسطائي) ، أن الموجود الحقيقي هو ما يفعل أو هو ماله قدرة على الفعل ، إلا أنه وضع تلك القدرة (كقدرة تامة) في المثل ، وكذلك فعل أرسطو حين وضعها في الصور ، بل إن أرسطو

جعل الصورة هي مبدأ الفعل الحقيقي ، فأبتدأ الرواقيون من هذا الأساس وأختلفوا مع أفلاطون وأرسطو في النتائج ، حين قالوا إن ما هو مادي هو وحده الذي يحدث الأثر ، أما ما عداه فليس بذئ أثر ، أي ليس له وجود حقيقي.

بينما يرى آخرون أنه بالإمكان إرجاع النزعة المادية عند الرواقيين الى نظريتهم في المعرفة ، فنزعتهم المادية تتماشى مع نزعتهم الحسية في المعرفة. فإذا كان أفلاطون قد وضع المعرفة في الفكر ووضع الحقيقة لهذا في المثال ، فالرواقيون قد وضعوا المعرفة في الإحساس ، ووضعوا الحقيقة لهذا فيما هو معروف بالحواس أي (المادة) ، إلا أن هذا الرأي يمكن رده بالقول : بأن وضع المعرفة في الإحساس ليس كافيا لتفسير النزعة المادية في الوجود ، إذ قد يكون العكس هو الأصح ، بالأخص وأن هناك من يرى بأن الرواقيين قد قالوا بنظريتهم الحسية في المعرفة إعتقادا على مبدئهم الأصلي في النظرة الى الوجود ، وهو أن الوجود جسماني أو مادي خالص ، وبهذا تُفسر مادية الرواقيين بتأثير المذاهب السابقة (مذاهب الطبيعيين الأوائل) ، أو بالمذاهب المشائية المعاصرة لهم. ويؤيد التفسير الأول ، الأسس الهيراقليطية التي بنوا عليها نظريتهم في الوجود ؛ رغم أنه يقال أيضا أنهم إنما عنوا بذكر مذهب هيراقليطس بعد أن كانوا مؤمنين من قبل بالمادية ، وحاولوا بعد ذلك أن يحيوا المذاهب القديمة تأييدا لما يذهبون إليه ، فماديتهم هي الأصل ، وأستشهدهم بمذاهب الطبيعيين القدماء وسيلة من وسائل التأييد فحسب. أما ما يؤيد التفسير الثاني فهو التركة الأرسطية الثقيلة جدا والغامضة بالقدر ذاته ، والمتعلقة بترك مسألة العلية بين الصورة والهيولى من دون حلٍ نهائي ، فجاء أتباع أرسطو بالأخص أرسطوكسين ثم أسطراطون ليستخلصوا النتيجة المنطقية لتطور مذهب أرسطو ويقولوا بشيء من المادية ، فكان على الرواقيين أن يستخلصوا النتائج النهائية لهذا المذهب ، فيقولوا : إن الوجود الحقيقي والوحيد في الواقع هو الوجود المادي ؛ إلا أن هذا التفسير يصطدم بموقف الشراح الذين لم يذكروا شيئا عن الصلة بين المشائية والرواقية ولم يشيروا إليها ولو لمرة واحدة.

ومع جملة الاعتراضات التي وُجّهت لتلك الآراء في تفسير (مادية) الرواقيين ، لا يبقى صامدا سوى الحل الذي يقدمه (زيلر) ويدعمه (روديبه) ، إذ يؤكد (زيلر) بأننا يجب أن نبحث عن أصل (النزعة المادية) للمدرسة الرواقية في الطابع الأصلي للتفكير الرواقي ، وهو الطابع العملي. ولما كان كل شيء موجه عندهم نحو العمل ، كانت كل نظرياتهم في الطبيعيات إنما يقصد بها أن تكون أساسا أو وسيلة الى قواعد في الأخلاقيات ، وعلى ذلك ، يجب أن ننظر الى طبيعة

مذهبهم الفيزيائي - أو في الوجود ككل - على أساس النزعة العملية الأخلاقية. ونحن إذا نظرنا الى المسألة من هذا الجانب ، وجدنا أنه كان على الرواقيين أن يقولوا بمثل هذه المادية ، وذلك لأنهم يبحثون عن العمل وتحقيق الفعل من حيث هو مؤد إلى السعادة ، وتحقيق الفعل يتم بالنسبة الى أشياء مادية موجودة في الواقع ، أي أن كل فعل يستلزم شيئاً مادياً جسمانياً محسوساً لكي يتم ، وعلى هذا فإن كان الأصل هو تفسير الأعمال ؛ فلا بد إذن من إرجاع كل شيء وكل وجود حقيقي الى ما هو مادي.

ويوافق (روديبه) (زيلر) في رأيه هذا ، إلا أنه يعدل فيه ، فيقول : إذا كان صحيحاً أن النزعة العملية عند الرواقيين هي الأساس في ماديتهم ، فيجب أن نفهم هذه النزعة العملية بمعنى خاص .. فقد إتجه (أفلاطون وأرسطو) نحو الأخلاق أيضاً ، ومع ذلك لم يقولوا بشيء من المادية ، بل اضطرتهما نظرتهما الأخلاقية الى الإرتفاع على العالم المحسوس والقول بعالم غير محسوس يمكن أن تتحقق فيه وحده السعادة. ولهذا لا يمكن أن تُفسر المادية الرواقية إلا على أساس طابع عملي من نوع خاص ، فيقال حينئذ أن هذه النزعة المادية نزعة إلحادية متصلة بالعالم الظاهر المادي بصرف النظر عن أي عالم آخر ، فالسعادة يجب أن تتحقق في هذا العالم المادي الذي نحيا فيه. وإذا كانت الحال على هذا النحو ، فلا بد من القول تبعاً لهذا بأن الموجودات في العالم المحسوس موجودات حقيقية ، وأن ما عداها من الموجودات ، مما هو خالٍ من المادة ، لا يمكن أن يعد موجوداً حقيقياً ، فالطابع العملي في هذه الحالة هو طابع أُرضي (أي متصل بالعالم المحسوس المادي) الذي نحيا فيه وحده.

في حين تقدّم (إليان إسكوباس) تفسيراً مقارباً لتفسير (زيلر) نافيةً بشكل ضمني تهمة الإلحاد عن المدرستين (الرواقية والأبيقورية) ، فتقول : «إن المشروع الأخلاقي عند الرواقيين والأبيقوريين يرمي الى إبتلاع الإنشقاق الأفلاطوني - القائم على التعالي وثنائية حياة النفس وحياة الجسد - داخل نزعة واحدة ونزعة طبيعية تخلّص الإنسان من كل تعالٍ وتجعلان الحياة الفاضلة تتناسب والحياة الطبيعية. فالرواقيون يُجهدون أنفسهم مثل الأبيقوريين ، ولكن بطرقٍ مختلفة ، من أجل المصالحة بين الإنسان من جهة والطبيعة والزمان من جهة ثانية ، وذلك مناهضة للتمزق الميتافيزيقي الذي أسسه سقراط ، إنهم يحاولون إعادة التماثل بين الأخلاق والواقع أو (الفيزيس)».

نفهم إنطلاقاً من هذه الإعتبارات أن المبدأ المُشترك بين الرواقيين والأبيقوريين يتمثل في رغبتهم بالعيش وفقاً للطبيعة - وهذا هو الأساس في نزعتهم المادية - ، وهي رغبة مناهضة تماماً للأفلاطونية ، لأن التناسب مع الطبيعة والتلاؤم معها غريبان عن المجهود الذي ما فتئت تبذله الأفلاطونية من أجل تخليص الإنسان من (حقارة) العالم المادي والسمو بالنفس حيث لا يلحقها من (دناسة) الوجود الحسي شيء ، فالرواقية والأبيقورية إذن فلسفتان ماديتان وطبيعيتان تبحثان في التجربة الحسية عن مقاييس (الحق) والخير والجمال.

ما يتفق عليه الجميع إذن هو (النزعة المادية) للمدرستين ، فلننظر الآن في هذه النزعة - أيا كان الأساس الذي قامت عليه - كيف تُفسر نشأة الكون والإنسان ، وما هو المبدأ الحقيقي الذي بالإمكان عدة (أصل الوجود ومبدأ تشكُّله) في الوقت ذاته؟ ، لنتفحص قدر الإمكان إلى أي مدى سنكون على صواب ، إذا ما قررنا بأن (الحقيقة النهائية للوجود) لا بد أن تكون (مادية - جسمية*) ولا يمكن أن تكون غير ذلك.

ثانياً / الجوهر الإلهي :

بالنسبة للإنسان والنفس البشرية عند الرواقيين ، ((فالإنسان يتكون من جسدٍ وروح ، ولكن طبقاً لماديتهم التامة فإنهم يعتبرون أن هذه الروح نفسها مادية جسمية ، وتتكون الروح من عناصر بارعة خفيفة : نار وهواء وتتحد بالنار الروح ، الروح المتأججة ، الروح المشتعلة ، وهي تنتشر عبر الجسد كله))^(٢) ، أما تصورهم للكون فلم يخرجوا فيه عن طبيعيات هيراقليطس ، وإن كانوا قد أدخلوا عليها تعديلات كثيرة ، فالعالم عند الرواقيين هو مجموع الأشياء المؤلفة من السماء والأرض وما فيهما من أجناس وطبائع. والعالم يحيط به خلاء ، وليس في العالم نفسه خلاء ، أي ليس فيه فضاء خالٍ من الأجسام عارٍ عن وجود الأشياء. وللعالم نفس : لأن العالم كائن حي مفكر عاقل ، ونفس العالم منبثة في كل مكان .. وقد نشأ العالم من النار الأولى. والنفس البشرية مثلها مثل الجسد - لا في ماديتها فحسب - ، فهي تنتقل عن طريق الإنجاب ، مما يفسر التشابهات ، لا الجسدية فقط ، وإنما أيضاً النفسية التي توجد بين الأبناء و الآباء ، وهذه العقيدة المنسوبة بشكل غير دقيق إلى الرواقيين عن طريق بعض الشهادات ؛ تعد مؤكدة لدى (زينون) و(كليانثس)

* تجدر الإشارة هنا إلى أن (المادة) تختلف عند الرواقيين تماماً عن (المادة) عند كل من أفلاطون وأرسطو ، فبينما نجدها عند هذين الأخيرين (لا متعينة وغير محددة) وما هي إلا محض إمكانية فقط - كما مر في المقصد السابق - ، نجدها عند الرواقيين متعينة ، حتى كمادة أولى وهي (النار) كما أنها (جسمية) بالإضافة إلى كونها لا فقط (إمكانية) و (علة سلبية) بل هي (قوة فاعلة ومُنتجة).

و(خريسيبوس) و(بيناييتوس) بشكل آخر. لذلك فمن الممكن أن تعد عقيدة عامة بالنسبة للمدرسة ، وفي الواقع لا يوجد تناقض بين هذه النظرية والنظرية الخاصة بالأصل الإلهي للنفس البشرية ، إذا ما عدنا النفس البشرية جزء من النفس الإلهية للعالم ، فإن ذلك يتم بطريق غير مباشر وبعيد ، وذلك بواسطة نفس الإنسان الأول (الناشئ من التراب بمساعدة النار الإلهية).

المبدأ المشترك بين الكون والإنسان إذن ، هو الأصل الذي نشأ عنه الإثني وهو (النار) ، فهل هي (الحقيقة الكلية للوجود برمتها) أم هي فقط المبدأ والأصل الذي نشأ عنه هذا الوجود ، وإن لم يكن أي شيء من الأشياء الموجودة حقيقيا إن لم يكن ماديا ، فهل (النار) مادة ؟

تبدأ الكونيات أو الطبيعيات الرواقية من النار الأولية (وينبغي أن نتصورها لا على أنها شبيهة النار المدمرة التي نستعملها على الأرض ، بل بالأحرى على أنها الألق الوضيء للسماء وهي جوهر إلهي ، وهنا ينبغي ان نتذكر بأن الإله ونفس زيوس ، و العقل ، وضرورة الأشياء أو حتميتها ، والناموس الإلهي ، وأخيرا القدر ، كل ذلك عند زينون واحد). من هذه النار الأولية تتولد ، عبر سلسلة من الإستحالات ، العناصر الأربعة جميعها ، فجزء من النار يستحيل هواء ، وجزء من الهواء يستحيل ماء ، وجزء من الماء يستحيل ترابا ؛ وبعد ذلك يولد العالم لأن نفسا ناريا (بنوما) إلهية قد نفذ الى الرطب .. وتتولد من هذا الفعل جميع الموجودات المفردة المترابطة فيما بينها في عالم واحد ، ولكل موجود منها صفته الذاتية ، فرديته غير القابلة للاختزال ، التي تدوم مادام هو ، وما هذه الفرديات ، فيما يظهر ، إلا شذرات من البنوما الأولى ، وذلك مادام تولد موجودات جديدة من التراب أو من الماء منوطا أما بالمقدار من النفس (البنوما) الذي إحتفظ به في تكوين الأشياء ، وإما ، في حالة الإنسان ، بشرارة نزلت من السماء لتكوّن روحه.